أفانين

أثر الإيحاء في جلب التفاؤل

للأستاذ علي الجندي

— ١ —

للإيحاء سلطان كبير على النفوس، يدفعها إلى القيام بأعمال جليلة ما كانت لتقوم بها لو عداها أثره الحافز القوي

ولا نبالغ إذا قلنا : إن جل الناس يضربون في زحمة الحياة ومعتركها الهائل تحت تأثير ذلك الإلهام الباطني وإن لم يشعروا به أحياناً لأنه أخفى دبيباً من السحر

وفضل هذا الإيحاء عظيم في أنه يشد عزائمنا ويستجيش قوانا، ويملؤنا رجاء وأملاً، ويهوّن علينا اجتياز الصعاب والعقبات

فالتاجر لا تتفتح نفسه للتجارة ويقبل عليها بشغف ولذة، إلا إذا ألهم نفسه أن من وراء ذلك المكسب الطائل والربح الوفير

والجندي في ساحة الوغى إذا فَقَدَ الروح المعنوية — وهي فن من الإيحاء — فَقَدَ أمضى أسلحة القتال، ولم يُجْدِ عليه أن يكون شجاع القلب حسن الدربة قوي العدة. وقد عبر عن هذا المعنى بأجلى عبارة فارس الإسلام «علي بن أبي طالب» حين سئل : بم كنت تنال النصر ؟ فأجاب : كنت أبرز للخصم وأنا أعتقد أني أغلبه، وهو يعتقد أني أغلبه، فكنت أنا ونفسه عليه

والإيحاء بمعناه العلمي يؤمن به أطباء هذا العصر كل الإيمان ويستخدمونه علاجاً ناجعاً في شفاء الأمراض العصبية والعقد النفسية والعادات الشاذة. وقد حدثني بعض من درسوا الحياة الإنجليزية أن الأم هناك تعود طفلها قبل النوم أن يقول لنفسه : «إني سعيد» عشر مرات والغرض من هذا أن يتدسس هذا الاعتقاد إلى عقله الباطن فيخالط نفسه بمر السنين ويمتزج بمشاعره، فيستقبل الحياة مرحاً متفائلاً ريان الأمل بساماً على السراء والضراء

وأقول بهذه المناسبة : إني شفيت بفضله بعض الشفاء من الخجل المفرط والحياء الغالي، وهو مرض موروث كثيراً ما قعد بي عن غشيان الأندية والمحافل، ومنعني من أداء الواجبات وزيارة الأصدقاء

كما أشهد أنني انتفعت به في قرض الشعر ؛ ذلك أنني كنت مكثراً منه في مفتتح حياتي الأدبية، ثم صرفتني عنه الكتابة صرفاً تاماً حتى عسر الرجوع إليه، فما زلت أوحي نفسي بأن من الجناية تعطيل هذه الموهبة، وأن الشعر أروع ألوان الأدب وأجلها خطراً ولا يسد مكانه غيره، حتى عدت إليه تدريجاً ... والعود أحمد إن شاء الله . وليس التشاؤم إلا ضرباً من الأوهام تتحكم في ضعفاء الإرادة رقاق الإيمان، فيمكن التخلص منها بالإيحاء

وهذا الدواء — أعني الإيحاء — عرفه الناس قديماً لأنه دواء فطري، إذ لا يخرج في حقيقته عن المغالطة التي يلجأ إليها الإنسان أحياناً ليدخل الروح على نفسه ويستل منها القلق والاضطراب .

ولنعرض الآن صورتين متشابهتين يغلب في الأولى التشاؤم فيلونها بلون قاتم كريه نقرأ فيه اللوعة والحيرة والتبلبل ويتجلى في الثانية التفاؤل فيُشيع فيها النضارة والبهجة والإيناس !

في الصورة الأولى نرى (ذا الرّمة) الشاعر، مر في طريقه بغراب ينعب فوق بانة، فتمثل له خياله المظلم أن الغراب نذير الاغتراب ! وأن البانة عنوان البين ! وقد تعهد له المذرق الغراب، ولكن كيف يسوغ التشاؤم بالبان ؟ وبه تشبه قدود الحسان !

قال ذو الرمة :

رأيت غراباً ناعباً فوق بانةٍ ... من القضب لم ينبت لها ورق نضر
فقلت غراب لاغتراب، وبانة ... لبين النوى، تلك العيافة والزجر

ومثله جحدر اللص في قوله :

وما هاجني فازددت شوقاً ... بكاء حمامتين تجاوبانِ
تجاوبتا بلحن أعجمي ... على غصنين من غرب[1] وبان
فكان البان أن بانت سليمى ... وفي الغرب اغتراب غير داني

وفي الصورة الثانية نرى الأمر على نقيض ذلك مع أن بواعث التشاؤم أشد وأكثر، نرى (أباحية النمري) أنشأ سفراً، فسنحت له عُقاب، وطالعته حمائم تنوح على شجرة طلح، وهدهد ساقط على غصن بان، تحته بقعة من دم مسفوح !

وكانت هذه المرائي الغريبة التي يسودها التنافر خليقة بأن يتطير منها، ولكنه طرد عن نفسه طوارق السوء، وأوحى لها أن كل أولئك من أمارات الخير والبركة، فما عتم أن انقلب الشؤم في عينه يمناً، واستحال الليل نهاراً ! قال :

بدا يوم رحنا عامدين لأرضها ... سنيحٌ، فقال القوم مرٌّ سنيحُ
فهاب رجال منهمو وتقاعسوا ... فقلت لهم جاري إليّ ربيح
عُقاب بأعقاب من الدار بعدما ... جرت نية تسلي المحب طروح
وقالوا حمامات فحُمٌ لقاؤها ... وطلح، فزرت والمطيُّ طليح
وقال صحابي هدهد فوق بانة ... هدى وبيان بالنجاح بلوح
وقالوا: دَمٌ، دامت مواثيقُ بيننا ... ودام لنا حُلوُ الصفاء صريح

ويمتد بنا القول إذا وقفنا عند كل شاهد وعمدنا لتحليله ،

(١) شجر رخو الأعواد

فنكتفي لضيق المقام بإيراد الأمثلة وفيها غنية عن البيان

دخل الحجاج الكوفة متوجهاً إلى عبد الملك فصعد المنبر، فانكسر تحت قدمه لوح، ففطن إلى أن الكوفيين قد تطيّروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله وقال: شاهت الوجوه وتبّت الأيدى! وبؤتم بغضب الله! أَئن انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم؟! ألا وإنى على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب الأبقع، وأشأم من يوم نحس مستمر!

وخطب قتيبة بن مسلم على منبر خراسان، فسقط القضيب من يده، فتطيّر له عدوه بالشر، واغتمّ صديقه، فعرف قتيبة ذلك فقال: ليس الأمر على ما ظن العدو وخاف الصديق، ولكن كما قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافرُ

وكان الوزير أبو نصر الكندرى يتولّى فى أول أمره حجْب الناس، وكان الباخرزى رفيقه فى الدرس فقال مداعباً إياه:

أقبل من كندر[1] مُسَيْخِرةٌ للنحس فى وجهه علاماتُ
يحضر دُورَ الأمير وهو فتًى موضع أمثاله الخرّاباتُ

ثم ارتقت الحال بالكندرى حتى صار وزيراً محكا، فورد عليه الباخرزى وهو فى صدر الوزارة ببغداد، فلما رآه قال له: أنت صاحب (أقبل من كندر مسيخرة ...) قال: نعم. فقال الكندرى: مرحباً وأهلاً! إنى تفاءلت بقولك (أقبل ...) ثم خلع عليه قبل أن ينشده مديحه فيه. ومن الأمثلة الشعرية قول نور الدين المايورقى من شعراء نفح الطيب:

وذى هيف راق العيون انثناؤه بقد كريّان من البان مُورق
كتبتُ إليــه: هل تجود بزورة؟ فوقّع «لا» خوفَ الرقيب المصدّق
فأيقنت من «لا» بالعناق تفاؤلاً كما اعتنقت «لا»[2] ثم لم تتفرق

ويقول عبد الرحمن من شعراء اليتيمة:

إذا دهاك الوداع فاصبرْ ولا يهولنّك البعــادُ
وانتظر العودَ عن قريب فإن قلب الوداع (عادوا)

ومن أروع الشعر فى ذلك: ما كتب به أبو الفضل الميكالى إلى قوم من أهل (مَرْو)[1] انخلعوا من طاعته وحلوا لواءه وتألفوا فرقتين تعيثان فى الأرض فساداً! قال:

يا راكباً أضحى يخبُّ بعنسِه ليؤمَّ مَرْوَ على الطريق المَهْيَع
أبلغْ بهـا قوماً أثاروا فتنةً ظلّت لها الأكبادُ رهنَ تقطُّع

(١) اسم قرية (٢) إشارة إلى اعتناق الألف واللام وللشعراء فى ذلك كلام كثير منه
رأيت شخصك فى نومى يعانقنى كما تعانق لام الكاتب الألفا
(١) عاصمة خراسان

من الذروة

هـــــذا القطيع ...!

[إلى الذين ما مست مزاهرهم يد الله]

... ولمحتُ رَكباً فى الحضيض مُغنِّيا
طمَرَ الخنا تحتَ النشيدِ ودَسَّهُ
مِنْ كلِّ نشوانِ الربابِ طهارةً
وحشاهُ للأكوانِ يترعُ رِجْسَهُ
لَبِسَ المُسُوحَ فقيلَ: قدِّيسُ الحِمى!
والجيفةُ الشنعاء تلفظُ قُدْسَهُ
وبكى الغرامَ فقيلَ: أرخمُ عاشقٍ
غنَّى! وَنَتْنُ الفُحشِ يَزْحَمُ نفسَهُ
كَذِبٌ يجلجلُ فى الصدى، وخواطرٌ
إفكُ الرحيقِ بها يُعاتِبُ كأسَهُ
فكأنها فى الشدوِ منطقُ مُومسٍ
نَعَشُ الحياءِ بها يُواثِبُ جَرْسَهُ ...!
فمضيتُ أسألُ: أىُّ جوقٍ مُزعجٍ
للمُلهَمين شدا ليُطرِبَ رَمْسَهُ؟
فأُجِبتُ: دَعْ هذا القطيعَ، فإنهُ
بُومٌ يُؤَبِّنُ فى المفاوزِ حِسَّهُ!!

محمود حسن اسماعيل

إذ قدّموا ظلماً على سلطانهم بالغدر والخلع الذميم المفظع
وبحلِّ عقد لوائه وإباحة لجنــابه وحريمه المتمنع
أبلغهمُ أنى اتخذتُ لفعلهم فألاً، له فى القوم أسوأ موقع
أما اللواء وحلُّه فمخبِّرٌ عن حلِّ عقدِ بينهم مستجمع
والخلع يخبر أن ستُخلع عنهمُ أرواح بالقتل الأشدّ الأشنع
والغدر يُنبى أن تغادَرَ فى الورى أشلاؤهم لنسوره والأضبُع
والفِرْقتانِ فشاهدٌ معناهما بتفرُّقٍ لجمعهم وتصدُّع

ويلاحظ فى هـذه الأمثلة أنها من نوع الإيحاء الذاتى «إيحاء الإنسان إلى نفسه» وسنتتبع هذا المقال بطائفة من غرر الإيحاء الخارجي، فيها قرة العيون وشفاء الصدور والله المستعان!

على الجندى

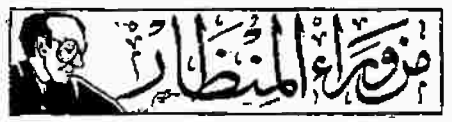

من الفأس إلى السلاح

خففت إلى القرية منذ بضعة أيام ، وقد أغراني الصحو والدفء أن أنعم بهما هناك يوماً أو يومين فى ملاعب صباى ومسارح هواى وجنة أحلامى ؛ ورحت فى رونق الضحى أدب كالفراشة من حقل إلى حقل ومن غدير إلى غدير ، وفى قلبى فرحة الغلام ، وفى خيالى أحلام الشاعر .

وجلست أستريح ساعة فى مصلى على جانب الطريق ، أستند إلى جذع شجرة التوت العتيقة التى جردتها يد الشتاء العاتية من أوراقها ، والتى طالما استروحت نسيم الأصل الرخى فى ظلها السابغ أثناء الصيف ؛ وأخذت عيناى من بعد شخصاً قادماً فى زى « الأفندية » ، فلما صار بحيث أتبينه ، رأيته فى زى « الجند » وما لبث أن دنا منى فعرفته ، ولما بلغ حيث أجلس نطق بالسلام مبتسماً ورفع يده إلى رأسه محيياً بالتحية التى تعلمها فى الميدان ... وعجب إذ نهضت واقفاً له وإذ مددت إليه يدى مصافحاً ، وأشرت إليه فجلس على استحياء على حافة المصلى

هذا هو حسن الفتى القروى المرح ، القسيم الحيا الذى تعرفه القرية كلها بمواويله الساحرة العذبة التى كان يمليها عليه فى الأفراح ما هن قلبه من حب عف شديد والتى ما لحق به فى مضمارها أحد من منافسيه .. ولقد طالما رأيته بالأمس يخطر فى ملابسه القروية فى تلك البقاع ، ولقد طالما سمعته من قريب أو من بعيد يبدأ أغانيه الحلوة بقوله : « آه ... يا ما جرى لك يا قلبى »

واليوم أراه فى حلته العسكرية ينتعل ذلك الحذاء الضخم ويضع على رأسه الطربوش ويمسك بيده عصا رفيعة من الخيزران ، وقد زال عن وجهه سفع الشمس إلا قليلاً فبدا أكثر وضاءة وأجمل قسامة وأنضر عافية

ولمحت فى عينيه شيئاً من القلق ولكن لم يغب عنى سببه ، فأنا أعرف أن ذلك المصلى مكان انتظاره لمن يهوى قلبه وهى قافلة من الترعة أو ذاهبة إليها ؛ وأشرت إلى ذلك مداعباً ممازحاً فضحك ضحكة جميلة مازج الطلاقة فيها الخجل ... ولكن إشارتى إلى ما فى نفسه زادت قلقه ، فوجم برهة ، وأدركت أنه يهم بالانصراف فأخذت أهدئ بالحديث روعه

ولم يطل ذلك الحديث فقد رأيت الصفرة تغشى وجهه والخجل يتزايد فى عينيه ؛ فالتفت فإذا هى مقبلة تحمل جرتها ، ورأيتها حينما دنت منا قد أخذتها ربكة المفاجأة فاضطرب هيكلها ثم أسرعت فأخفت وجهها بطرحتها . . . وبدا لى فناديتها حين مرت فأبطأت ولكنها لم ترد ولم تلتفت ، فأكدت ، فوقفت ثم تغاضبت فأقبلت فى حياء شديد ، فصحت بها لتقدم وإلا نهضت فجئت بها على رغمها ، فجاءت ووضعت يدها فى يد خطيبها ثم انتزعتها مسرعة دون أن تتكلم ، وأشرت إليه فحط عنها الجرة وأرغمتها على الجلوس ، فجلست إلى جانب المصلى تحجب طرحتها نصف وجهها المتورد الجميل

وانعقد لسان الجندى فلم يدر ماذا يقول « فأنقذت الموقف » أنا بامتداحى حياة الجندية وبثنائى فى عبارة يفهمانها على أولئك البواسل الذين يفتدون بلادهم بأرواحهم ... ولمعت عينا الجندى الشاب ، ثم تندت بدموع الفرح وأنسته الحماسة خجله ؛ فقال وهو الذى كان يحمل الفأس بالأمس إنه يفدى بلاده بدمه إذا لزم الفداء ... ونظرت إليه الفتاة نظرة لم أر فيها إلا معانى الإعجاب والارتياح ؛ ونهضت قائلاً إنى أتركهما برهة ليقولا ما بنفسيهما .

وعدت إذ رأيته يضع على رأسها الجرة وواجهتنى ذاهبة ، فإذا هى مستبشرة راضية تكتم ضحكتها ؛ ودنوت من ذلك الجندى أسأله لم لا يصف ذلك فى موال من مواويله وهو ذلك الشاعر الذى ماعى لسانه فى موقف ... ولكنه لم ينطق بموال حينذاك ، وإنما راح يتكلم عن حب الوطن وعن معانى الفداء والبطولة . ولشد ما أعجبنى قوله « الواحد منا ما يستهلش خير بلاده إذا ما دفعش عنها بدمه ، والراجل إيه فائدة عافيته وشبابه ؟ يا ترى يقعد زى البنت ؟ » وأكد لى أنه لا يأسف على فراق قريته فى سبيل وطنه وله فيها من يهواها قلبه فحب بلاده فوق كل حب !

واستأذن الجندى الفلاح فوقفت أصاحبه فى حماسة وشيمته بنظرات الإكبار وهو يمشى مشية متزنة سريعة ، وعجبت كيف تغير الجندية عقلية هؤلاء الفلاحين بمثل هذه السرعة ، وأثلج صدرى أن أرى فى ذلك الفتى المتحمس الدليل الحى على صحة ما يقوم أبداً فى نفسى من أن هذا الذى يجيل الفأس فى تربة وادينا الوديع الهادئ كفيل بأن يدير فى يده السلاح بنفس المهارة إذا هو قلد السلاح ... ومن أين جاءت جنود تحتمس ورمسيس وابراهيم ؟ وكم بين هؤلاء السذج زرق الجلاليب من قادة أمجاد وعلماء أفذاذ وشعراء فطاحل وساسة أماثل ولكنهم تركوا فى غمار الجهل والفاقة لا يعلمون إلا أن يجيلوا الفأس فى ثرى الوادى فى صمت وصبر جاهدين

« هيو »